أهمية المياه في حضارة بلاد الرافدين

د. هالة صلاح الحديثي
قسم الخاص/ كلية القانون

د. حسين ظاهر حمود
قسم الآثار/ كلية الآداب

المستخلص:

تعد المياه من أهم عناصر الطبيعية قاطبة، فهو سائل للحياة بعبارة أخرى يمثل الماء أهم مورد حيوي لجميع أشكال الحياة، حيث لا غنى عنه لجميع الكائنات الحية سواء أكان أنساناً أم حيواناً أم نباتاً؛ قال تعالى "وجعلنا من الماء كل شيء حي"(١)، فضلاً عن كونه يعد أحد أهم الركائز الأساسية التي يمكن أن تنهض عليها البلاد، فمن المحال أن نتصور حياة وديمومة أي مجتمع وتطوره دون الماء ذلك لان التقدم والتطور الحضاري مقترن بإمكانية الحصول على الماء واستغلاله.

المقدمة:

ليس من المستغرب ان نجد اهتمام العراقيين القدماء بالمياه فقد أدركوا بأن المياه هي المحور الأساس بازدهار بلادهم، ومن أجل ذلك فقد خصوا المياه بنوع من التقديس والاحترام، وقد أحتل إله المياه المعروف بأسم أنكي (ENKI)(٢)، مرتبة متقدمة بالنسبة إلى الآلهة الأخرى نظراً إلى مكانته السامية إذ كان من ضمن الآلهة المهمة التي قامت بخلق كل شيء في الكون.

استغل العراقيون القدماء نعمة المياه التي كانت متوفرة لديهم آنذاك في ميادين عدة، منها حاجات شخصية أو طقوس دينية أو عدّها حَكَماً في فض المنازعات. كذلك هيأت المياه لأبناء الرافدين، طرق رئيسية للمواصلات بين المدن فضلا عن ذلك فقد قدم النهران مادة غذائية رئيسية

---

(١) سورة الأنبياء /الآية (٣٠).

(٢) تجدر الإشارة إلى أن كلمة (أنكي Enki) هي كلمة مركبة من مقطعين هما EN وتعني بالسومرية السيد اما المقطع الثاني ki فتعني الأرض وعليه فأن الكلمة يقصد بها سيد الأرض، هذا وقد أطلق على هذا الإله بالاكدية ايا Ea والتي يراد بها بيت الماء.كما كان الإله انكي يسمى بسيد الأرض، لان الأرض هي مصدر الأنهار والينابيع والآبار والمياه العذبة، فهي بذلك ستكون مانحة للحياة.

Poter, B. N. Monotheism in Ancient Assyria One God or Many, New York 1997, 175-176.

– ينظر ايضاً: مريم عمران موسى، الفكر الديني عند السومرين في ضوء المصادر المسمارية، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٩٦، ص ٧٠.

لأبناء الرافدين تمثلت بالثروة السمكية، وليس غريباً بعد كل ذلك ان تكون المياه محور اقدم النشاطات لأبناء الرافدين.

وعليه فقد تم اختيارنا لهذا الموضوع وذلك من أجل التعرف على أهمية المياه في حياة أبناء الرافدين، وارتأينا تقسيم هذه الدراسة إلى عدة فقرات، نعرض من خلالها مدى التفاعل الإيجابي بين العراقيين القدماء وبيئتهم المائية.

– التعريف بالمياه:

قبل الولوج في تفاصيل الموضوع لابد من تقديم تعريف بمفهوم المياه لغة واصطلاحا حيث أن التعريف بالشيء يعد جزء من تصوره.

آ– المياه لغة:

الماء لغة: مأخوذ من (مَوَهُ)، وأصل الماء ماهٌ، وهو معروف. والواحدة ماهةُ وماءةُ والهمزة فيه مبدلة من الهاء، وفي موضع اللام، وأصله مَوَهُ، بالتحريك، وفي الحديث: كان موسى عليه السلام، يغْتَسِلُ عند مُوَيْهٍ. وجمع الماءِ أَمواهُ ومياهُ، وحكى ابن جني في جمعه أمُواء؛ قال أنشدني أبو علي:

وبَلْدة قالصة أمْواؤُها،
تَسْتَنُّ في رَأْد الضُحَى أفياؤُها،
كأَنما قد رُفِعَتْ سَماؤُها[1].

ب– المياه أصطلاحاً:

يعد الماء مركباً كيميائياً فريداً في نوعه حيث يتكون من أتحاد ذرتين من غاز الهيدروجين مع ذرة من غاز الاوكسجين وللماء خواص فيزيائية وكيميائية فريدة تجعله من أهم المصادر الطبيعية المنتشرة على سطح الارض[2] وباطنها وفي الغلاف الغازي، فهو يوجد في

---

(1) أبن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، بدون سنة طبع، ، ص٥٥١.

(2) تبلغ مساحة الكرة الأرضية حوالي ٥١٠ مليون كم٢، وتغطي المياه حوالي ٣١١ كم٢، أي ما يعادل حوالي ٧٠,٨% من المساحة الكلية للكرة الأرضية للمزيد انظر: د. سامح غرايبة و د. يحيى الفرحان، المدخل إلى العلوم البيئية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٩، ص٣٦.د. علي حسن موسى، التلوث البيئي دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠، ص٢٧٧.

ثلاث حالات فيزيائية – صلبة وسائلة وغازية عند درجات الحرارة والضغوط العادية للكرة الارضية[١].

وللماء دوره في الطبيعة وذلك بفعل الطاقة الشمسية حيث يحدث وفقها حركة تبادلية مستمرة للماء ما بين الجو من جهة واليابس والمسطحات المائية من جهة أخرى. وعليه يمكن اعتبار أية صورة من هذه الدورة مصدرا للماء في الطبيعة.

– مصادر المياه عند العراقيين القدماء:

تتعدد مصادر المياه فقد تتخذ أحد الصور الآتية:

أ. الامطار:

تعد الأمطار المصدر الرئيس للمياه في الطبيعة، وتختلف كمية الامطار الساقطة في بلاد الرافدين وذلك حسب الموسم والمنطقة حيث تشير الدراسات الى وجود علاقة طردية ما بين كمية الامطار والاتجاه حيث تزداد كمية الامطار في بلاد الرافدين كلما اتجهنا نحو الشمال والشمال الشرقي [٢].

ب. الموارد السطحية:

تنتشر في أنحاء بلاد الرافدين العديد من المسطحات المائية وتشمل الأنهار والمتمثلة بنهر دجلة والذي كان معروفاً عند العراقيين القدماء باسم أدكنا (I Digna) والنهر الآخر تمثل بنهر الفرات والذي عرف عند السومرين بأسم بوارنن (Buranun)[٣].والملاحظ عند سكان الرافدين أنهم خصوا نهر الفرات بنوع من التقديس والتعظيم أكثر من غيره، ويعود السبب في ذلك إلى كونه النهر العظيم حسب اعتقادهم نهر المعابد المقدسة التي حفرته الآلهة لتنعم البلاد بنعمة مياهه فهو مصدر الرخاء والحياة لذلك تركزت على ضفافه المدنية ومراكز النشاط الحضاري القديم. فضلاً عن ان لمياهه أهمية صحية في معالجة المرضى وتطهير الادراق[٤] كما كانت هنالك جملة عوامل أخرى

---

[3] ترافس واجنر، البيئة من حولنا دليل لفهم التلوث وآثاره، ترجمة د. محمد صابر، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، القاهرة، ط١، ١٩٩٧، ص٢٩. د. سامح غرايبة، المصدر السابق، ص٢٧٣. د.محمد خميس الزوكه، البيئة ومحاور تدهورها وأثارها على صحة الإنسان، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٣٩٧.

[٢] انظر كذلك:احمد سوسة، ري العراق – نهر الفرات، ج١، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٤٥، ص٦٩.

[٣] حسن النجفي، معجم المصطلحات والإعلام في العراق القديم، دار واسط للنشر بغداد، ١٩٨١، ص ٣٤.

[٤] ينظر بهذا الخصوص: طه باقر وبشير فرنسيس، الخليقة واصل الكون، سومر، مج ٥، ١٩٤٩، ص ٣١. عادل جاسم البياتي، الفرات وأثره في تراثنا الشعري والحضاري، مجلة أفاق عربية، العدد ٥، ١٩٧٩، ص٥.

دفعت إلى هذا التفضيل كطبيعة الأرض الزراعية الموازية أو المحيطة بالمجرى وتكون على ذات المستوى وتتسم بالخصوبة بحيث أضحت صالحة للزراعة على مر العصور[١]. وقد عثر المنقبون على نص مسماري دون عليه دعاء ديني موجه إلى نهر الفرات الذي حضي بتقديس وتأليه عند السومريين والبابليين وقد ورد فيه الآتي:

- "يا أيها النهر خالق كل شيء حينما حفرتك آلهة العظام.
- أقاموا أشياء طيبة على شطئانك وفي طيات غمرك.
- بنى أيا ملك الغمر مقامه وانعموا عليه بفيض من المياه.
- لا نظير له فيا أيها النهر العظيم أيها النهر المجيد يا نهر المعابد المقدسة.
- مياهك تفرج الغمة فتقبلني برأفة وخذ ما في بدني وارم به.
- على شطئانك وغرقه عند ضفافك وغطى في أعماقك"[٢].

أما الموارد الأخرى فتتمثل بـ(الروافد[٣] والبحيرات والاهوار)، وتجدر الإشارة إلى أن أبناء الرافدين الرافدين يعتمدون وبصورة مباشرة على هذه المصادر ويشكل نهرا دجلة والفرات[٤] وروافدهما المصدر الأساسي للمياه في بلاد الرافدين.

ج. المياه الجوفية.

لا تعد المياه السطحية في الكثير من المناطق أساسا يعتمد عليه، ويعود السبب إلى شحتها، فضلاً عن تأثير التغييرات المناخية السريعة التي تؤثر بشكل كبير على جريان المياه في الأنهار والأودية، وعليه فأن المياه الجوفية[٥] تعد عنصراً رئيساً لموارد المياه في الكثير من المناطق وخاصة

---

[١] علي حسين صادق، حقوق العراق المكتسبة في مياه الفرات، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية القانون، جامعة بغداد، ١٩٧٦، ص٢٠٥.

[٢] للمزيد راجع: طه باقر وبشير فرنسيس، مصدر سابق، ص٣١، السير وليم ويلكوكس، من جنة عدن إلى عبور نهر الأردن، تعريب محمد الهاشمي، الطبعة الإنكليزية (٣)، ١٩٢٩، ص٣٤.

[٣] هنالك خمسة روافد تصب بنهر دجلة عند دخوله الأراضي العراقية وتتسم هذه الروافد بكونها تنبع من خارج الأراضي العراقية.

[٤] يعد نهرا دجلة والفرات في الوقت الراهن من الأنهار الدولية والتي تعرف بأنها تلك الأنهار التي تمر أحواضها بين إقليم اكثر من دولة، أو تلك التي تفصل بين إقليم دولتين. جعفر عبد السلام، مبادئ القانون الدولي العام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٦، ص٧٢٢.

[٥] المياه الجوفية تلك المياه الباطنية التي توجد في أعماق الأرض تحت التربة وتتسم هذه المياه بكونها غير متجددة إلا انها خالية من المواد العالقة والبكتريا نظراً إلى تعرضها لعملية الترشيح خلال مرور الماء في باطن الأرض وتتفجر هذه المياه أحيانا على شكل ينابيع أويحفر للوصول إليها من خلال الآبار. وتعد المياه الجوفية أحد

تلك التي تفتقر لوجود مياه سطحية جارية [١]، وقد أظهرت التنقيبات في مدينة كلخو (النمرود) أن هنالك عدد من الآبار كانت تستخدم من قبل ساكني القصر الملكي، كما عثر على بئر ما يزال قيد الاستعمال وينتج كمية من المياه حالياً تقدر بحوالي خمسة آلاف غالون من الماء يوميا [٢].

-مكانة المياه عند العراقيين القدماء:

ورد الإشارة في اللغة الأكدية إلى الماء بلفظة (mu) أو (mau)[٣]، كما ورد في النصوص المسمارية ما يدل على أن المياه كانت تعد من العناصر الأساسية عند العراقيين القدماء فهي مصدر الحياة ومنبع الخير والبركة لذلك فقد خصوا المياه بنوع من التقديس والتعظيم واعتبروها من جملة الآلهة المشتقة من القوى الطبيعية [٤]. فقد أحتل اله المياه المعروف بأسم أنكي (ENKI)، مرتبة متقدمة بالنسبة إلى الآلهة الأخرى نظراً إلى مكانته السامية إذ كان من ضمن الآلهة المهمة التي قامت بخلق كل شيء في هذا العالم وهذا ما تؤكده أسطورة الخليقة البابلية التي تعرف بقصيدة اينوما ايلش (Enumaelish) والتي تبدأ بوصف الفوضى البدائية حيث لم تكن الأرض ولا الكون والآلهة قد خلقت بعد، وكل ما كان هناك فقط المياه الأزلية

المصادر المهمة للمياه في الطبيعة وهي جزء من الدورة الهيدرولوجية ويتسم هذا المورد بكونه اقل كمية إذا ما قورنت بالمياه السطحية، وهنالك عدة مصادر للمياه الجوفية، إلى جانب أن هنالك صورتين للمياه الجوفية هما:

أ- مياه جوفية سطحية.

ب- مياه جوفية عميقة.

وللمياه الجوفية مهام عديدة في حياة سكان المناطق التي تفتقر لمياه سطحية حيث تستخدم مياهه للشرب والري وأحيانا في الصناعة والاستخدام المنزلي وغيرها من الاستخدامات. ويعاني هذا المصدر من مشكلة هي زيادة في استغلال موارده وخاصة في السنوات الأخيرة مما رتب عليه أثر غير طيب من حيث انخفاض مستوى منسوب مياهه.

[١] لقد أكدت الدراسات الجيولوجية الحديثة، ان هنالك مناطق في بلاد الرافدين تتكون من طبقات تتسم بكونها حاملة للمياه الجوفية مكونة من صخور رملية وكلسية وخصوصاً في منطقة السهل الرسوبي، وتقدر كمية المياه الجوفية المتاحة للاستعمال في بلاد الرافدين في الوقت الراهن بنحو ٢ مليار م٣. رياض حامد الدباغ، مشكلة المياه في العراق إلى مشكلة المياه في الشرق الأوسط، ج١، دراسات قطرية حول الموارد المائية لمستخدماتها، بدون سنة طبع، ص٢٢٩.

[2] عامر سليمان، المدينة والحياة المدنية، حضارة العراق، ج١، بغداد، ١٩٨٧، ص ١٦٩.

[٣] Jermy Black and Others; A Concise Dictionary of Akkadian, Wiesbaden, 2000, P.213.

[٤] من الحقائق التي تم اكتشافها ان الديانة في بلاد الرافدين اتسمت بمبدأ الحيوية أي تجسيد الظواهر الكونية والطبيعية بهيئة آلهة وهذا ما أدى إلى وجود آلهة كثيرة، من بينها آلهة المياه. للمزيد راجع: طه باقر وبشير فرنسيس، الخليقة واصل الكون، سومر، مج ٥، ١٩٤٩، ص٣١، السير وليم ويلكوكس، تعريب محمد الهاشمي، من جنة عدن إلى عبور نهر الأردن، الطبعة الإنكليزية (٣)، ١٩٢٩، ص٣٤.

وتتضمن مياه البحر المالحة العنصر المؤنث (وتيامه) والتي اقترنت مع مياه المحيط العذبة (آبسو) العنصر المذكر وهذان العنصران يمثلان آلهة العالم الأول الذي نتج عن اقترانهما أول جيل من الآلهة وفيما يأتي أجزاء من هذه الأسطورة البابلية:

- "حينما في العلى لم ينبأ عن السماء (لم تسم بأسم).
- وفي الدنى الأسفل لم تذكر الأرض بأسم.
- وحين كانت مياه ابسو الموجود الأول والدهم.
- والأم تيامه والدة جميعهم.
- ولم يكن قد وجد أي مرعى ولا يرى أي شيء حتى هور قصب حينما لم يظهر إلى الوجود أي من آلهة.
- ولم يذكر أسماؤهم ولا خصصت وظائفهم وأقدارهم.

ثم وجد الآلهة في وسطهما (وسط ابسو وتيامه)" [١].

فضلاً عن أن الإله أنكي اله الماء والحكمة عند السومريين[٢] كانت بحوزته النواميس الإلهية وتبعاً لذلك كانت الآلهة الأخرى تستشيره في المواقف الصعبة وتطلب منه المساعدة والعون في المحن[٣].وتأتي منزلة الإله أنكي –ايا [٤] في المرتبة الثالثة بعد الإله انواله السماء وانليل اله الهواء[٥].

ومن الجدير بالذكر أن الآشوريين قد رمزوا لإله المياه في نقوشهم ومنحوتاتهم وذلك تجسيداً لقدسيته وإظهارا لمدى أهميته وتأثيره في حياتهم ومن تلك الرموز القرص المجنح أنظر الشكل (١). والإناء الفوار أنظر الشكل (٢)، وكذلك ظهر رمز آخر في الحقب الآشورية المتأخرة تمثل برأس كبش أنظر الشكل (٣).

---

(1) طه باقر: مقدمة في أدب العراق القديم، بغداد، ١٩٧٦، ص ٧٤.

(٢) فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٧، ص٢٣٠.

(٣) حول هذا الموضوع راجع: أحمد سوسة، مصدر سابق، ص ٤٣٣.

(٤) (أيا) باللغة الاكدية تعني، اله المعرفة والحكمة، وكان موطن عبادته مدينة (اريدو) السومرية المقدسة وهو أبو (مردوك) اله بابل العظيم. وقد أشتهر أنكي بحبه للبشر وهو الذي اس بخبر (الطوفان) إلى أوتو نبشتيم (النبي نوح عند البابلين) وهوجد كلكامش.نقلاً عن: حسن النجفي، معجم المصطلحات والإعلام في العراق القديم، دار واسط للنشر بغداد، ١٩٨١، ص٦٤.

(٥) Luckenbill, D.D, Ancient Records of Assyria and Babylonia Chicago, (1926) Vol. 1, pp.211-212.

-أستخدامات المياه عند العراقيين القدماء:

أن المياه كانت أساساً لحياة العراقيين القدماء لذا فأن معظم المدن والقرى العراقية القديمة كانت تقع على ضفاف الأنهار والجداول وذلك لكي يتمكن السكان من توفير المياه اللازمة للشرب والاستعمال المنزلي حيث أن المياه كانت تنقل من قبل صبيان أو فتيات الآسرة وذلك من خلال جلود الحيوانات والتي تعرف بالقربة أوقد تستخدم الجرار الفخارية من اجل نقل المياه ومن الجدير بالذكر ان هنالك أناساً كانوا يمتهنون مهنة توفير المياه ويطلق عليهم (سقاة)، أو قد يتضمن البيت بئر خاص يتم من خلاله تزويد الآسرة بما تحتاجه من مياه[١]، وفي الواقع أن هذه المسألة تُثير تساؤلاً مفاده، هل كانت هنالك أنظمة خاصة من أجل تصريف المياه؟

أن التجربة الإنسانية في بلاد الرافدين ومنذ أمد بعيد تعاملت مع مسألة تصريف المياه بصورة واضحة وذلك لإدراكهم بأهمية النظافة وضرورة التخلص من المياه القذرة، وذلك لمعرفتهم بعلاقتها بالصحة العامة ومن أجل الوقاية من الأمراض[٢].وقد وجدت التنقيبات الأثرية، ان بيوت السومرين والآشوريين كانت تحوي على مجاري خاصة لتصريف المياه في كل دار وكان تصميم هذه المجاري عبارة عن أنابيب فخارية مثقبة ومتصلة بعضها بالبعض الآخر وتوصل بالقار، وتنزل بصورة عمودية في الأرض والى أعماق كبيرة وتوضع حولها كسر صغيرة من الفخار تساعد على تسرب المياه إلى الأرض، هذا وقد كان تصميم فوهاتها تشبه في بعض الأحيان فم البوق، وفي الواقع أن هذا التصميم يشبه نمط مجارينا في الوقت الراهن[٣]، أما فيما يخص مسألة تصريف المياه الثقيلة فأننا نفخر بأن مدينة بابل وقبل ٧٠٠-٥٠٠ق.م كانت تحوي على قنوات لتصريف المياه القذرة، كما نظمت فيها مجاري كبيرة لغرض إنقاذ المدينة من الفيضان بها وفضلاً عن ذلك كان النهر يقطع بجسر دائم يستقر على خمس قناطر لتصريف المياه[٤].

ومن الحقائق الأخرى التي يتطلب ذكرها ! أن المياه كانت تمثل أهمية خاصة عند العراقيين القدماء؛ نظراً لكونها مرتبطة بمعتقداتهم الدينية، ومن المعتقدات المرتبطة بالديانة أجراء بعض الطقوس الدينية التي يكون الماء جزءاً رئيساً فيها حيث يستوجب على المرء لأجل القيام بطقوسه

---

[١] عامر سليمان، مصدر سابق، ص١٦٩.

[٢] سامي سعيد، الطب العراقي القديم، سومر، المجلد ٣، ١٩٧٤، ص ٩٣.

[٣] السير ليوناردولي، وادي الرافدين مهد الحضارة، ترجمة احمد عبدالباقي، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤٨، ص٨٤. ينظر أيضا: عامر سليمان، الكتابة المسمارية والحرف العربي، جامعة الموصل، ص٣٤-٣٥.

[٤] جورج كونتيو، الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور، ترجمة سليم طه التكريتي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٧٨، ص٦٨.

الدينية ان يكون متطهراً وذلك من خلال الاغتسال والاستحمام حيث تزيل المياه كل الخطايا وفضلاً عن ذلك فان الحاجة إلى الاغتسال للمحافظة على الصحة أو الراحة الشخصية وقد عدا العراقيون القدماء الماء والشمس عنصرين هامين للتطهير(١)، وقد أظهرت أعمال التنقيبات عن آبار في المعابد القديمة كانت تستخدم للاغتسال قبل أداء الطقوس الدينية. لذا كانت النظافة بالنسبة للآشوريين والبابليين تعد من مظاهر الورع (٢)، وعليه فأن المياه مثلت الوسيلة الفضلى التي تبعدهم عن النجاسة والدنس والتي هي عنصر من عناصر الخطيئة لديهم وهذا ما توضحه شعائرهم الدينية(٣) فضلاً عن ان بعض التراتيل الدينية كانت تتضمن وصفاً لمياه النهرين التوأمين دجلة والفرات، إلى جانب ان الأدعية والأمنيات التي كانت توجه إلى آلهة مياه النهر لتحقيقها فهو مصدر الخير والبركة، كانت تقدم الهدايا إلى آلهة المياه وذلك للحصول على البركة فقد ذكر في الحوليات الملكية أن الملك سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ ق.م) قام بتقديم الهدايا إلى آلهة المياه إذ يقول " رميت في البحر سمكة ذهبية وزورقاً "(٤) وذلك امتناناً وشكراً له على سلامة وصوله من بلاد عيلام حيث كان قد قام بحملة بحرية ضدهم.كما قام الملك سنحاريب أيضاً بتقديم الهدايا إلى آلهة المياه وذلك حينما قام بفتح قناة سنحاريب حيث ذكر" لفتح هذه القناة أرسلت كاهنا من صنف أشيبو وكاهنا من صنف كالو ومقادير من العقيق الأحمر واللازورد والأحجار الكريمة وأشياء أخرى من الذهب والعقاقير واحسن زيت إلى الإله ايا"(٥).

هذا وقد وجدت العديد من المسلات والحوليات التي تشير إلى توسل الملوك بالآلهة ومنها آلهة المياه وذلك من اجل تحقيق الأمنيات والرغبات، فعلى سبيل المثال في مسلة الملك الآشوري أشور ناصر بال الثاني (٨٨٣-٨٥٨ق.م) يبدأ الملك بالتوسل بالآلهة حيث جاء فيها "آه يلآشور، السيد

---

(١) عبد الملك يونس، عبادة الإله شمس في حضارة وادي الرافدين، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٧٥، ص٧٤-٧٥.

(٢) راجع بهذا الخصوص: هاري ساكز، قوة أشور، ترجمة عامر سليمان، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٩٩، ص ٢٧٣.

(٣) جورج بويبه شمار، المسؤولية الجزائية في الأدب الآشورية والبابلية، ترجمة سليم الصويص، وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨١، بغداد، ص ١١٨.

(٤) Luckenbill, D.D, Ancient Records of Assyria and Babylonia Chicago, (1926) Vol. 1, P320.

(٥) احمد سوسة، تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الآثارية والمصادر التأريخية، ج٢، بغداد ١٩٨٦، ص ١١٥.

العظيم، ملك كل الآلهة العظام، انو القوي المبجل الذي يصدر قرارات الآلهة، ايا ملك جهنم، سيد الحكمة، وحيد العالم...أنتم الآلهة العظام الذين تقررون مصير الأرض وانتم جعلتم مملكتي عظيمة....."[١].

ولم تقتصر أهمية المياه على ما سبق ذكره بل كانت للمياه أهمية أخرى عند العراقيين القدماء تمثلت بالاعتقاد السائد انها القاضي الحاكم بين الناس[٢]، كما ان المياه وسيلة للعقاب حيث سببت الطوفان لإهلاك البشرية وكما ورد تفاصيل ذلك في قصة الطوفان[٣].

من ناحية أخرى أدرك العراقيون القدماء ان بيئتهم الطبيعية قد منحتهم طرق مواصلات طبيعية تمثلت بالنهرين العظيمين وروافدهما، وقد أسهمت هذه الملاحة إلى درجة كبيرة في تحقيق التطور والازدهار الحضاري وديمومته في بلادهم[٤]، وقد إنشاء العراقيون القدماء أول منظومة ري عرفتها البشرية، وذلك من أجل تنظيم توزيع المياه على الأراضي الزراعية[٥].

ومن الجدير بالذكر أن النصوص القديمة كانت تزخر بقصص مخصصة بتقديس المياه معروفة (بأدب المياه) وهذا ما يمكن مشاهدته في كتاباتهم الأدبية ففي إحدى النصوص ورد ما نصه " إن أمي مطر السماء، أنها الماء الذي يروي أحسن البذور...أنها قناة تجلب المياه الوافرة إلى قنوات الإرواء ولم يقتصر الأمر على الكتابات الأدبية بل أن الأمثال أيضاً في أدب بلاد الرافدين تضمنت ذلك فأحد الأمثال ورد فيها" النهر باتجاه الريح يجلب الماء الوفير" ومثل آخر يقول الناس بلا مشرف مثل الماء بلا مراقب، ومثل أخر يقول" إذ لم تنضب بئري فعطشي قليل". وأن هنالك العديد من الأمثال والقصص المخصصة بالمياه تزخر بها أدبيات بلاد الرافدين[5] . شأنها في ذلك شأن جميع الأمم القديمة التي سكنت أحواض الأنهار وأقامت على ضفافها أعظم الحضارات القديمة[٧].

---

(١) Luckenbill, D. D, Ancient, op.cit, pp.174-175.

(٢) عبدالرزاق محمد اسود، موسوعة العراق السياسية، ط١، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٦، ج١، ص٩٩.

(٣) حول التفاصيل ينظر: فاضل عبد الواحد، ....، حضارة العراق، ١ج، ١٩٨١، ص٣٣٠وما بعده.

(٤) رضا جواد الهاشمي، الملاحة النهرية في بلاد وادي الرافدين، مجلة سومر، عدد ٣٧، ١٩٨٧، ص٥١. هورست كلينغل، حمورابي ملك بابل وعصره، ترجمة د. غازي شريف، بغداد، ط١، ١٩٨٧، ص٢٣.

(٥) سامي سعيد الاحمد، الزراعة والري: في حضارة العراق، ج٢، بغداد، ١٩٨٥، ص١٨٢ ومابعدها.

(٦) طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، بغداد ١٩٧٦، ص١٥٩-١٦٠.

(٧) عبدالعزيز الياس سلطان الخاتوني، أثر البيئة الطبيعية في تاريخ وحضارة بلاد الرافدين، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، جامعة الموصل، ٢٠٠٠، ص١٣٤.

وهكـذا يتبـين لنـا ان العـراقيين القـدماء كـانوا مهتمـين بالميـاه مـن خـلال ربطهـا بمعتقـداتهم الدينيـة إذ ان الميـاه شـكلت عصـب الحيـاة النـابض وركيـزة للبنـاء الحضـاري وأسـاس الاستقرار والنماء[١] وتبعاً لذلك وجبت عليهم العنايـة بالبيئـة المائيـة وصـيانتها[٢] وعدم التجاوز عليها لان ذلك حسب معتقداتهم كان يعد اعتداءً على آلهتهم.

ولقد نـال أبنـاء الرافـدين ثمـرة هذا الاهتمـام فقد أضـحت بلادهـم محط أنظـار الأقـوام المجـاورة والبعيدة عبر الحقب الزمنية نظراً إلى وفرة مياهها وخصب أراضيها[٣] لذا أستوطن الإنسان في هذه المنطقة منذ عصور مبكرة وظهرت فيها حضارة ناضجة عدت مهداً لحضارة الجنس البشري[٤] فضلاً عن كون أرض الرافدين تعد أشهر أرض زراعية من حيث خصوبتها، حتى أنها كانت تسمى بأرض السواد بسبب كثافة الغطاء النباتي الذي يكسب سطحها والغابات والبساتين والحقول بلونها الأخضر الداكن[٥] وذلـك بفضـل استغلال أبنائهـا الجيد لمـواردهم المائيـة ممـا جعل بلادهم غنيـة إلـى درجـة حملت الاسكندر الكبير علـى التفكير فـي جعل(بابل) عاصمة العالم[٦]. فأن المهم ولا عجب أن يستفيد أبنـاء الرافـدين مـن مـواردهم المائيـة إلـى درجـة كبيـرة ويسـخرونها لتطـوير حيـاتهم وبـذلك فقد اكتسبوا حقاً تأريخاً موغلاً وحضارة مفعمة بالإنجازات والإبداعات.

---

(١) رضا جواد الهاشمي، مصدر سابق ص ٣٦.

(٢) وهذا ما أكدته الرقم الطينية المكتشفة التي أشارت إلى عناية البابليين بالبيئة المائية وصيانتها إلى درجة ان حمورابي خصص الكثير من رسائله الإدارية إلى حكام الأقاليم يحثهم فيها على الاهتمام بأطراف الأنهر والعمل على تطهير الجداول والأنهر من الترسبات الطموية للمحافظة عليها وإدامتها. للمزيد حول هذا الموضوع راجع: طه باقر، مقدمة في جغرافية العراق التاريخية، الحلقة الثالثة، العدد١٢، السنة ٦، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧١ ص٣٣. هورست كلنغل، مصدر سابق، ص١١٧.

(٣) يشير الباحثون الجيولوجيون إلى أن أرض العراق في العصر الجيولوجي الثاني المعروف بأسم سيتوزوئيك أي قبل ٣٠ مليون سنة كانت مغمورة بمياه البحر الا انه حدثت تقلصات في القشرة الأرضية أدى إلى نزوح المياه نحو الأسفل تاركة وراءها أراضي غرينية في جنوب العراق عرفت بخصوصيتها مما حدا بالإنسان في الآلف ٦ ق. م إلى استيطانها واستثمارها. موقع شبكة الانترنيت www.google.com التركيب الجيولوجي لأرض العراق.

(٤) السير ليوناردولي، ترجمة احمد عبدالباقي، وادي الرافدين مهد الحضارة، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤٨، ص١٥.

(٥) محمد سعيد كتانة، أحواض أعالي نهري دجلة والفرات وأهميتها للعراق، بغداد، ١٩٧٦، ص٢. سامي سعيد الاحمد، مصدر سابق، ص١٥٣.

(٦) السير وليم ويلكوكس، تقرير عن ري العراق، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٣٧، ج١، ص٤.

– المياه في القوانين العراقية القديمة:

إن المتتبع للقوانين العراقية القديمة يجد بأن هنالك علاقة للمياه بالقوانين وقد تمثلت هذه العلاقة بالاعتقاد السائد لدى أبناء الرافدين بكون المياه تمثل القاضي الحاكم بين الناس[١]، وهذا ما تؤكده نصوص المواد القانونية الواردة في التشريعات العراقية القديمة فمثلاً المادة (٢) من شريعة حمورابي تقضي على الشخص المتهم باستخدام السحر بإلقائه في النهر فإذا غرق عد مجرماً وتعطى أمواله لمن اخبر عن جريمته وان طفا ولم يغرق أعتبر بريئاً واعتبر منْ أتهمه كاذباً وعوقب بالقتل ومصادره الأموال. أما (المادة ١٣٢) من نفس القانون فأنها أشارت إلى اختبار الزوجة(الاختبار النهري) لإثبات براءتها من شائعات الناس وأحاديثهم حول اتهامها بالخيانة الزوجية، و تقابلها المادة (١٧) من اللوح الأول من القوانين الآشورية الوسيطة وقد سبقت هذه المواد جميعها المادة (١٠، ١١) من قانون اورنمو [٢].

كذلك عالج قانون حمورابي قضية صيانة المرأة لبيت الزوجية وذلك من خلال المادة (١٤٣) حيث نصت على أنه " إذا كانت غير محترسة وتخرج (كثيرا) وتخرب (بذلك) بيتها وتحط من شأن زوجها، عليهم ان يلقوا تلك المرأة في الماء "[٣].

فضلاً عن ان هذه التشريعات احتوت على مواد قانونية أخرى كثيرة تتعلق بتنظيم الملاحة النهرية فقد عالج حمورابي هذا الموضوع في المواد (٢٣٤ – ٢٤٠) من شريعته.

كذلك عالج قانون حمورابي قضية التحايل بالأثمان حيث نصت المادة (١٠٨) على ما يأتي " إذا استلمت بائعة الخمر نقودا بالوزن الثقيل ثمنا للبيرة بدلا من استلامها حبوبا، أو أنها جعلت قيمة البيرة (المباعة مقابل حبوب) أقل من قيمة الحبوب (المستلمة)، فعليهم ان يثبتوا هذا (التحايل) على بائعة الخمر ويقذفونها في الماء (النهر)[٤].

الخاتمة:

---

(١) عبدالرزاق محمد اسود، موسوعة العراق السياسية، ط١، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٦، ج١، ص٩٩.

(2) للمزيد راجع:عامر سليمان، القانون في العراق القديم، دراسة تاريخية قانونية مقارنة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ط٢، ١٩٨٧، ص٢٢٩، ٢٥٢، ٢٨٤، ١٩٤.

(٣) فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧، ص ١٤٤.

(٤) المصدر نفسه، ص١٣٦.

لقد كانت بلاد الرافدين موطن الحضارة الأولى ومنبع عناصرها سواء على صعيد الزراعة أو التجارة أو القوانين أو الكتابة أو الري أو غيرها من الأمور، ويعزى السبب الرئيسي لهذا الازدهار إلى النهرين العظيمين، اللذان بفضلهما ازدهرت هذه البقعة من المعمورة، ولشدة اثر المياه في حياة العراقيين القدماء فقد أنعكس ذلك في اكثر من مظهر من مظاهر الحضارة في هذا الوادي، وهذا ما تم الاستدلال إليه من خلال هذه الدراسة التي توصلت إلى جملة من الاستنتاجات أهمها:

١) تمثل المياه أصل ومصير كل الكائنات على الأرض منذ العصور السحيقة وكانت ولازالت تتوقف آفاق المستقبل والتطور الحضاري عليها.

٢) سعى الإنسان في بلاد الرافدين ومنذُ القدم إلى ربط عنصر الماء بعملية الخلق والتكوين من خلال قراءة واستلهام مؤشرات مظاهر الطبيعة لكشف سر المياه ويظهر ذلك بوضوح من خلال الإمعان بالشواهد الأدبية التي دونها العراقيون القدماء.

٣) عمل الإنسان في بلاد الرافدين إلى تسخير البيئة ومنها المياه لخدمته وبناء حضارته، وهي تمثل الحقيقة الخلاقة الأولى التي دفعت الإنسان إلى نفح العالم القديم بإنجازاته الحضارية واتجاهه نحو التمدن.

٤) يمكن ان نستوعب من المفاهيم الرمزية المتنوعة على النقوش والمنحوتات، عن العقلية الحضارية الخاصة ببناة حضارة الرافدين وكيفية ربط المياه بعلاقة كيانية صحيحة، تنم عن فكر عميق وواقعية مرتبطة بالمياه.

٥) أستخدم أبناء الرافدين المياه في الشؤون الحياتية المختلفة، الشرب، الاستحمام، والطهارة وذلك لارتباطها بأمور الصحة والوقاية من الأمراض.

٦) كما واستخدمت المياه(مياه النهر) كوسيلة لغرض فرض العقوبات على الجناة وإصلاح المجتمع وتنظيمه، وكما ورد ذلك في عدد من المواد القانونية التي أشارت إلى ذلك.

قائمة المصادر

١) أبن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، بدون سنة طبع.

٢) د. احمد سوسة، ري العراق – نهر الفرات، ج١، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٤٥.

٣) احمد سوسة، تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الآثارية والمصادر التأريخية، ج٢، بغداد ١٩٨٦.

٤) السير ليوناردولي، وادي الرافدين مهد الحضارة، ترجمة احمد عبدالباقي، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤٨.

٥) السير وليم ويلكوكس، تقرير عن ري العراق، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٣٧، ج١.

٦) السير وليم ويلكوكس، من جنة عدن إلى عبور نهر الأردن، تعريب محمد الهاشمي، الطبعة الإنكليزية (٣)، ١٩٢٩.

٧) ترافس واجنر، البيئة من حولنا دليل لفهم التلوث وآثاره، ترجمة د. محمد صابر، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، القاهرة، ط١، ١٩٩٧.

٨) جعفر عبد السلام، مبادئ القانون الدولي العام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٦.

٩) جورج بويبه شمار، المسؤولية الجزائية في الأدب الآشورية والبابلية، ترجمة سليم الصويص، وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨١، بغداد.

١٠) حسن النجفي، معجم المصطلحات والإعلام في العراق القديم، دار واسط للنشر بغداد، ١٩٨١.

١١) طه باقر، مقدمة في جغرافية العراق التاريخية، الحلقة الثالثة، العدد١٢، السنة ٦، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧١.

١٢) طه باقر وبشير فرنسيس، الخليقة واصل الكون، سومر، مج ٥، ١٩٤٩.

١٣) سامح غرايبة و د. يحيى الفرحان، المدخل إلى العلوم البيئية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٩.

١٤) سامي سعيد، الطب العراقي القديم، سومر، المجلد ٣، ١٩٧٤.

١٥) عادل جاسم البياتي، الفرات وأثره في تراثنا الشعري والحضاري، مجلة أفاق عربية، العدد ٥، ١٩٧٩.

١٦) عامر سليمان ونخبة من الباحثين العراقيين، المدينة والحياة المدنية، ج١، بغداد، ١٩٨٠.

١٧) عامر سليمان، القانون في العراق القديم، دراسة تاريخية قانونية مقارنة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ط٢، ١٩٨٧.

١٨) عبدالرزاق محمد اسود، موسوعة العراق السياسية، ط١، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٦، ج١.
١٩) علي حسن موسى، التلوث البيئي دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠.
٢٠) علي حسين صادق، حقوق العراق المكتسبة في مياه الفرات، رسالة ماجستير، كلية القانون، جامعة بغداد، ١٩٧٦.
٢١) عبدالعزيز الياس سلطان الخاتوني، أثر البيئة الطبيعية في تاريخ وحضارة بلاد الرافدين، أطروحة دكتوراه، جامعة الموصل، ٢٠٠٠.
٢٢) عبدالرزاق محمد اسود، موسوعة العراق السياسية، ط١، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٦، ج١.
٢٣) فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٧.
٢٤) رضا جواد الهاشمي، الملاحة النهرية في بلاد وادي الرافدين، مجلة سومر، عدد ٣٧، ١٩٨٧
٢٥) محمد سعيد كتانة، أحواض أعالي نهري دجلة والفرات وأهميتها للعراق، بغداد، ١٩٧٦.
٢٦) هاري ساكز، قوة أشور، ترجمة عامر سليمان، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٩٩.
٢٧) هورست كلينغل، حمورابي ملك بابل وعصره، ترجمة د. غازي شريف، بغداد، ط١، ١٩٨٧.
٢٨) Luckenbill, D.D, Ancient Records of Assyria and Babylonia Chicago, (1926) Vol 1.

The importance of water in Mesopotamia civilization

Dr. Hala Salah Al-Hadithi d. Hussein Zahir Hammoud
Private Department / College of Law, Department of Archeology / College of Arts

Abstract:
Water is one of the most important elements of all naturalism, as it is a liquid for life in other words, water represents the most vital resource for all forms of life, as it is indispensable for all living beings, be it human, animal or plant; The Almighty said, "And we made from water every living thing", in addition to being one of the most important pillars on which the country can rise, it is impossible to imagine the life and permanence of any society and its development without water because that progress and civilization development is associated with the possibility of obtaining and exploiting water .